الحداثة في أدبنا العربيّ القديم

عمر شبلي

الحداثة هي حركة الواقع في الفكر الإنسانيّ، وتجاوزه إلى المستقبل، وهي مشتقة من فعل «حدثَ» أي الذي جاء جديدًا، ولا يمكن إنكار الفعل الحداثيّ إلّا حين يتجمّد الفكر ويصبح محاطًا بسياج تقليد ما قد سلف. ومن المؤكّد أنّ حركة الواقع الفكريّ هي التي تُحتّمُ انتقال الواقع إلى نتاجٍ فكريّ معبّر عن حالات التَّغيير الطّارئة على الواقع.

وانطلاقًا من هذا الفهم الرّابط بين الحدث الاجتماعيّ والحداثة الفكريّة النّاجمة عنه نقول إنّ شعرنا العربيّ عرف الحداثة الشِّعريّة التي بلغت تجلياتها العميقة في القرن الهجريّ الثّاني حيث تجلّت معالم حداثة الشّعر العربيّ بإنجازاته المتلائمة مع فكر عصره وتطوّره الاجتماعيّ، وكانت حداثة تغييريّة وجميلة بتأثيرها، وقادرة على الدُّخول في وعي اجتماعيّ جديد. والحداثة لا يمكن أن تفرضَ وجودها إلّا إذا كانت جميلة. إنّ جماليّتَها تدخلها في الوعي الاجتماعيّ العام، وفي روحه. وقتها نقول: إنّها حداثة.

ولكنّ هذا التَّطوّر الحداثيّ بدأ فكريّا وسلوكيًّا منذ دخول الفكر الإسلاميّ إلى السُّلوك الاجتماعيّ والأدبيّ نثرًا وشعرًا، ففي الخطابة بدأ الفكر الاجتماعيّ والرّوحيّ اللذان رافقا عملية الدّعوة الجديدة يظهران في كل ما أنتجته الحركة الفكريّة المتداخلة بالحركة الرّوحيّة في الوضع الاجتماعيّ العام، ولعل خطب الإمام علي بن أبي طالب التي جمعت في كتاب «نهج البلاغة» فيما بعد: «إنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة فتحه الله لخاصّة أوليائه» من أوضح الأدلة على مظاهر وتجليّات الحداثة الفكريّة والرُّوحيّة في نتاج تلك المرحلة، ومن نماذجها خطبة أبي حمزة الخارجيّ، وخطب الحجاج بن يوسف الثَّقفي التي تحوّلت إلى فكر سياسيّ واضح. «وإنّي لأرى رؤوسًا قد أينعتْ وحان قطافُها، وإنّي لَصاحبُها».

أمّا على المستوى الشّعريّ فقد كان شعر حسّان بن ثابت الأنصاري معبِّرًا عن روح وفكر تلك الحضارة الجديدة:

نبـيٌّ أتـانـا بعـد يـأسٍ وفتـرةٍ

من الرُّسْلِ، والأوثانُ في الأرض تُعبَدُ

فأضحى سـراجًا مستنيرًا وهاديًا

يـلوحُ كمـــا لاحَ الصَّقيـلُ المـــهنَّدُ

وبدأ تأثير الرُّوح الإسلاميّة يحمل بعدًا سياسيًّا في شعر تلك المرحلة، ومن نماذجه الجميلة قصيدة الفرزدق في مديح زين العابدين عليٍّ بن الحسين:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتهُ

والـــبيتُ يـــعرفه والـــحِلُّ والحرمُ

وليـــس قولك من هذا بضائرهِ

العُرْبُ تعـــرف مـــن أنكرتَ والعجمُ

هذه المظاهر الحداثيّة لم تكن مؤثّرة في شعر تلك المرحلة، فقد ظلّ معظم الشّعر منهمكًا بمعناه التّقليديّ، ومن أبرز نماذجه الثّالوث الأمويّ «الفرزدق، وجرير، والأخطل التّغلبيّ». لقد ظلّ شعر تلك المرحلة تقليديًّا على الرّغم من ولوجه البعد السّياسيّ بوضوح. والبعد السّياسيُّ وحده لا ينجز حداثةً، لأنّه في تلك المرحلة كان في معظمه امتدادًا للشّعر الذي سبق ظهور الإسلام. والذي نسميه «العصر الجاهليّ».

أمّا الحداثة الحقيقيّة فقد كانت استجابة لما حدث في العصر العبّاسيّ من تغيُّرٍ في الفكر والمجتمع في آنْ. في العصر العباسيّ امتزجت الأوضاع الاجتماعيّة الحياتيّة بحياة وتقاليد وسلوك الأمم الأخرى، وتحديدًا الفرس. في تلك المرحلة ظهر العمران الذي تجاوز مرحلة الأطلال وبداوتها، وكانت بغداد ودمشق رمزًا لهذا التّغيير في البناء واللّباس والتّقاليد. في بغداد كانت مجالس الخمر والغناء والجواري تصل بكل ما فيها إلى قصور الخلفاء، وكان كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهانيّ أكبر شاهد على ما نذهب إليه، والتَّأثر والتَّأثير لم يكونا على الوضع الاجتماعيّ فحسب، بل امتد إلى الوضع الفكريّ نتيجة للتّرجمات الكثيرة التي أنجِزتْ في العصر الجديد. وكان المعتزلة أبرز مظاهر التّأثر والتّأثيرفي تلك المرحلة.

كان الحسن بن هانئ «أبو نواس» من أبرز عوامل ونتاج الحداثة التي عرفها العصر العباسيّ، إذ راح يهاجم مظاهر الحياة السّابقة، وصار يدعو إلى ممارسة الحياة الجديدة بكل قوّة. وهنا لا بدّ من التأكيد على أنّ جمال شعر أبي نواس كان مؤثرًا ومترجمًا للحياة الجديدة بشاعريّة عميقة في جمالها وثوريّتها، وها نحن، وبعد مرور أكثر ألفٍ ومئتي سنة ما زلنا نحفظ قوله: «وداوني بالتي هي الدّاء». إن الشّعر السَّيئ لا يمكن أن تحتفظ به الذّاكرة. لقد كان أبو نواس من أهم علامات الحداثة في الشِّعر العربيّ بجماليّة شعره واستجابتها لحياة الناس. بدأ يهاجم حياة البداوة الطّلليّة وبسخرية لأنّها ابتعدت عن الواقع الاجتماعيّ الذي يعيش فيه النّاس:

قلْ لـمن يبكـي عـلى رسـمٍ درسْ

واقفـًا مـا ضـرَّ لـو كـان جـلسْ

وأكثر من ذلك راح يهاجم الذين رأوا أنَّ الخمرة من الكبائرْ، وكان بموقفه هذا يحاور فئة من العلماء الذين رأوا الخمرة كبيرة من الكبائر:

فقـل لمـن يـدّعي فـي العلم فلسفةً

حـفظتَ شـيئًا وغـابت عنـك أشـياءُ

لا تحظرِ العفوَ إنْ كنتَ امرءًا حَرِجًا

فـإنَّ حظـركَهُ بـالديـن إزراءُ

ومن شعره الجميل في هذا المجال قوله:

لا تـبكِ ليـلى ولا تطـربْ إلى هندِ

واشـربْ على الوردِ من حمراءَ كالوردِ

كأسًا إذا انحدرتْ في حلقِ شاربها

أجْـدَتْهُ حمـرتَها فـي العيـن والخدِّ

فالخـمرُ يـاقوتةٌ والكـأسُ لؤلؤةٌ

فـي كـفِّ جـاريـةٍ ممشوقةٍ القدِّ

تـسقيكَ مـن يدها خمرًا ومن فمِها

خـــــمرًا فمـــا لك مـن سُكْريْنِ من بُدِّ

لـــــي نـــشوتانِ وللنُّدْمان واحدةٌ

شــيءٌ خُصِصْتُ بــه من دونِهم وحدي

ولم تقتصر الحداثة على الاستجابة الجمالية للواقع الحياتي الجديد، بل تعدّتْه إلى الأسلوب والبديع والمعاني نفسه، وأبو تمّام «حبيب بن أوس الطائي» كان بارزًا وعاليَ التّأثير في هذا المجال، فقد كان أسلوبه يستعصي فهمُه على الآخرين، وقد سأله أحدُ مستمعيه عن غموض أسوبه ومعناه، وقال له: «لمَ تقول ما لا يُفهَم؟» فقال له أبو نواس: «ولمَ لا تفهم ما يُقال؟». في سؤال السّائل، وفي جواب أبي تمام تفسير لظاهرة الحداثة التي انتقلت إلى الشعر العربيّ، وللبديع الصّياغيّ الذي تمادى به أبو تمّام، والبديع الغزير في شعر أبي تمّام كان ظاهرة عن الحياة الجديدة بكلّ زخارفها، ومن بديع أبي تمام:

بيض الصفائح لا سودُ الصحائف في

مـــتونهـــــنّ جـــــلاءُ الشكِّ والريبِ

ومن بديعه الرّائع المتَّسم بغموض شفّاف في عصره، وما رأوه غامضًا، لكنّه في حقيقته شعرٌ مُعْجِز ضارب في أعمق ما في الحداثة، يقول في وصف يوم مشمس من أيام الرّبيع الجميلة:

مـطرٌ يـــذوب الصَّحوُ منه، ودونَه

صـــــحوٌ يـــكادُ مـن النَّضارةِ يُمطرُ

غيثانِ فالأنواءُ غيْثٌ ظاهرٌ

لك وجـــــهُهُ والصَّحوُ غـيثٌ مُضمَرُ

الحداثة تحتاج مدى أبعد، ونكتفي بهذا في بحثنا الهادف إلى تأكيد الحداثة في أدبنا وشعرنا العربيّ القديم